خطبة الجمعة: 02/03/2012م الشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَّال

سلسلة قرأت في كتاب

(يا عبادي إنِّي حرَّمت الظُّلم)

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى وأحثكم وإياي على طاعة الله، فنحن اليوم في دار ابتلاء فالسعيد من وعظ بغيره، والسعيد من ملأ حياته طاعة، وغير السعيد من ذهب اتجاه المعصية، أو انشغل عن الطاعات بالأهواء والملذات، إنه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ،ثم أستفتح بالذي هو خير: قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً*﴾ [الكهف:47-49].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:19].

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *﴾ [الأعراف:55-56].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة السَّابعة والعشرون في سلسلة: "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

وعنوان خطبة اليوم:

(يا عبادي إنِّي حرَّمت الظُّلم)

بمناسبة دخول شهر ربيع الأنور؛ شهر ولادة سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلم، أحببتُ أن أقرأ عليكم طائفةً من أحاديث النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، أَصدقِ النَّاس لساناً، وأحسنِ الخَلْقِ مقالاً.

وقد قرأتُ في الأسبوع الأوَّل من شهر ربيع أحاديث من كتاب "التَّرغيب والتَّرهيب" للحافظ المنذري، وقرأتُ بعدها من كتاب "كنز العمَّال" للعلَّامة الهندي، ثمَّ من كتاب "تاريخ مدينة دمشق" للحافظ ابن عساكر، وقرأت عليكم الأسبوع الماضي من كتاب "اصطناع المعروف" للحافظ ابن أبي الدُّنيا، وأقرأ عليكم اليوم من كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي.

وابن رجب الحنبلي: هو الإمام الحافظ زين الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثمَّ الدِّمشقي الحنبلي الشَّهير بابن رجب، ولد ببغداد ونشأ وتوفي بدمشق.

كانت له مجالس وعظ ودروس علم قالوا عنها: (كانت مجالس تذكيره للقلوب صارعة، وللنَّاس عامَّة مباركةً نافعةً اجتمعت الفِرَق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه).

ولابن رجب مصنَّفات مفيدة ومؤلَّفات عديدة منها شرح جامع التَّرمذي وشرح أربعين النَّووي المسمَّى جامع العلوم والحكم، وكتاب لطائف المعارف في الوعظ، والقواعد الفقهية، وغيرها.

توفي -رحمه الله تعالى- سنة خمس وتسعين وسبعمائة (795هـ) ودفن بمقبرة الباب الصَّغير.

قال ابن ناصر الدِّين: ولقد حدثني من حفر لحدَ ابن رجب أنَّ الشَّيخ ابن رجب جاءه قبل أن يموت بأيَّام، فقال لي: احفر لي هاهنا لحداً وأشار إلى البقعة التي دُفن فيها، قال: فحفرت له فلمَّا فرغ نزل في القبر واضطجع فيه فأعجبه، وقال: هذا جيد ثمَّ خرج، قال: فوالله ما شعرت بعد أيَّام إلا وقد أتي به ميتاً محمولاً في نعشه فوضعته في ذلك اللَّحد.

أمَّا كتابه جامع العلوم والحكم فقد شرح فيه خمسين حديثاً من أحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، الأربعين النَّووية الشَّهيرة وزاد عليها عشرة تمام الخمسين.

وقد قال العلماء: إنَّ هذه الأحاديث كلّيةٌ جامعة عليها مدار الدِّين، وتلقى العلماء الكتاب بالقبول والرِّضا فهو معتمد عندهم منذ ستمائة سنة ونيف.

والحديث الذي اخترته لكم اليوم أشرف حديث عند أهل الشَّام كما قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وفي هذا الحديث بيان قواعد عظيمةٍ في أصول الدِّين وفروعِه كما قال الإمام النَّووي، وهو مناسب لما نحن فيه من أزمة وشدة، نسأله تعالى كشفها بألطافه.

وها أنا أقرأ عليكم الحديث ثم أقطف شيئاً ممَّا جاء في شرحه من كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي.

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلَّم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنَّه قال: ((**يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تَظَالموا.**

يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم.

يا عبادي، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ، فاستطعِموني أُطْعِمْكم.

يا عبادي، كُلُّكم عارٍ إلا مَنْ كَسوْتُه، فاستكْسُوني أكْسُكُمْ.

يا عبادي، إنكم تُخطئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفِرْ لكم.

يا عبادي، إنَّكم لن تبلغُوا ضَرّي فتَضُرُّوني، ولن تبلغوا نَفْعي فتنفعوني.

يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقَى قلب رجل واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً.

يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجرِ قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ واحدٍ مسألتَهُ، مانقص ذلك ممَّا عندي إلا كما يَنقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ.

ياعبادي، إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثمَّ أُوفّيكم إيَّاها، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ)) [رواه مسلم].

قال ابن رجب في شرحه: (قال سعيد بن عبد العزيز كان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث بهذا الحديث جثى على ركبتيه.

قوله: **((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي))** يعني أنَّ الله تعالى منع نفسه من الظُّلم لعباده، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق:29]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:108]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر:31]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:44]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّساء:40]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112]، والهضم: أن ينقص من جزاء حسناته، والظُّلم: أن يعاقب بذنوب غيره، ومثل هذا كثير في القرآن وهو ممَّا يدلُّ على أنَّ الله قادر على الظُّلم ولكن لا يفعله فضلاً منه وجوداً وكرماً وإحساناً إلى عباده.

قوله: **((وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تَظَالموا))**، يعني: أنَّه تعالى حرَّم الظُّلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كلِّ عبدٍ أن يظلم غيره، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في خطبته في حجَّة الوداع: **((فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ))** [رواه البخاري]، روي عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه خطب بذلك في يوم النَّحر وفي يوم عرفة وفي اليوم الثَّاني من أيام التَّشريق.

وفي رواية ثمَّ قال: **((اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا أَلَا لَا تَظْلِمُوا))** [رواه أحمد].

وفي الصَّحيحين: عن أبي موسى عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: **((إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:102])).

قوله: ((**يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم.يا عبادي، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ، فاستطعِموني أُطْعِمْكم.يا عبادي، كُلُّكم عارٍ إلا مَنْ كَسوْتُه، فاستكْسُوني أكْسُكُمْ.يا عبادي، إنكم تُخطئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفِرْ لكم**))، هذا يقتضي أنَّ جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم ودفع مضارِّهم في أمور دينهم ودنياهم، وإنَّ العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كلِّه، وإنَّ من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرِّزق فإنَّه يُحْرَمُهُمَا في الدُّنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته خطاياه في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:2].

وإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدَّنيا، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة، مستحق أن يفرد بالإلهية والعبادة، والسُّؤال والتَّضرع والاستكانة له.

وفي الحديث دليل على أنَّ الله يحبُّ أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم...كما يسألونه الهداية والمغفرة.

وأمَّا الاستغفار من الذُّنوب فهو طلب المغفرة والعبد أحوج شيء إليه لأنَّه يخطيء باللَّيل والنَّهار، وقد تكرر في القرآن ذكر التَّوبة والاستغفار والأمر بهما والحث عليهما...، أخرج النَّسائي من حديث أبي موسى قال: كنَّا جلوساً فجاء النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**ما أَصْبَحْتُ غَدَاةً قَطُّ إِلَّا اسْتَغْفَرْتُ اللهَ مِائَةَ مَرَّة**)).

وأخرج الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: ((**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ مِائَةَ مَرَّةٍ**)).

وفي الصَّحيحن: عن النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**)).

قال الفضيلُ بنُ عياض رحمه الله: ما مِنْ ليلةٍ اختلط ظلامُها، وأرخى اللَّيلُ سِربالَ سَترها، إلاَّ نادى الجليلُ -جلَّ جلاله-: مَنْ أعظمُ منِّي جوداً، والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقبٌ، أكلؤهم في مضاجعهم، كأنَّهم لم يعصوني، وأتولَّى حفظَهم، كأنَّهم لم يُذنبوا فيما بيني وبينهم، أجودُ بالفضل على العاصي، وأتفضَّلُ على المسيءِ.

مَنْ ذا الذي دعاني فلم أُلبِّه؟ أم مَنْ ذا الذي سألني فلم أعطِه؟ أم من الذي أناخ ببابي فنحَّيتُه؟ أنا الفضلُ، ومنِّي الفضل، أنا الجوادُ، ومنِّي الجودُ، أنا الكريمُ، ومنِّي الكرمُ، ومِن كرمي أنْ أغفرَ للعاصين بعد المعاصي، ومِن كرمي أنْ أُعطي العبد ما سألني، وأُعطيه ما لم يسألني، ومِن كرمي أنْ أُعطي التَّائبَ كأنَّه لم يعصني، فأين عني يهرُبُ الخلائقُ؟ وأين عن بابي يتنحَّى العاصون؟ [أخرجه أبو نعيم].

قوله: ((**يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ واحدٍ مسألتَهُ، مانقص ذلك ممَّا عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدِخلَ البحرَ**)) المرادُ بهذا: ذكرُ كمال قدرته سبحانه، وكمالِ ملكه، وإنَّ مُلكَهُ وخزائنَه لا تَنفَدُ، ولا تَنقُصُ بالعطاء، ولو أعطى الأوَّلين والآخرين من الجنِّ والإنس جميعَ ما سألوه في مقامٍ واحدٍ، وفي ذلك حثٌّ للخلق على سؤالِه وإنزالِ حوائجهم به.

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((**إذا دعا أحدُكم، فلا يقُل: اللهمَّ اغفر لي إنْ شئتَ، ولكن ليعزم المسألةَ، وليُعَظِّم الرَّغبةَ، فإنَّ الله لا يتعاظمُهُ شيءٌ**)).

وفي بعض الآثار: يقول الله عزَّ وجلَّ: أيُؤَمَّلُ غيري للشَّدائد والشَّدائد بيدي وأنا الحيُّ القيُّوم؟ ويُرجى غيري، ويُطرق بابُه، وبيدي مفاتيحُ الخزائنِ، وبابي مفتوحٌ لمن دعاني؟ من ذا الذي أمَّلني لنائبة فقطعت به؟ أو مَنْ ذا الذي رجاني لعظيمٍ، فقطعت رجاءه؟ أو مَنْ ذا الذي طرق بابي، فلم أفتحه له؟ أنا غايةُ الآمالِ، فكيف تنقطعُ الآمالُ دوني؟ أبخيلٌ أنا فيبخِّلُني عبدي؟ أليس الدُّنيا والآخرة والكرم والفضلُ كُلُّه لي؟ فما يمنع المؤمِّلين أنْ يؤمِّلوني؟ لو جمعتُ أهل السماوات والأرض، ثم أعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم ما أعطيتُ الجميعَ، وبلَّغْت كلَّ واحدٍ منهم أملَه، لم يَنقُصْ ذلك مِنْ مُلكي ذرَّةٍ، كيف يَنقُصُ ملكٌ أنا قيِّمُه ؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني وتوثَّب على محارمي [أخرجه أبو نعيم].

وقوله: ((**ياعبادي، إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثمَّ أُوفّيكم إيَّاها**))، يعني: أنَّه سبحانه يُحصي أعمالَ عبادِه، ثمَّ يُوفيهم إياها بالجزاء عليها، الظَّاهرُ أنَّ المرادَ توفيتُها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:185]، ويحتمل أنَّ المرادَ: أنَّه

يوفي عبادَه جزاءَ أعمالِهم في الدُّنيا والآخرة كما في قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النِّساء:123]. وقد رُوي عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه فسّر ذلك بأنَّ المؤمنين يُجازَوْن بسيِّئاتهم في الدُّنيا، وتدخر لهم حسناتُهم في الآخرة، فيوفَّوْن أجورها. وأمَّا الكافر فإنَّه يُعجل له في الدُّنيا ثواب حسناته، وتُدَّخر له سيئاته، فيعاقب بها في الآخرة.

قوله: ((**فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ**))، فقد كان السَّلفُ الصالح يجتهدون في الأعمال الصالحة؛ حذراً من لوم النفس عندَ انقطاع الأعمال على التقصير.

قيل لمسروق: لو قصَّرتَ عن بعض ما تصنع من الاجتهاد، فقال: أمَّا بلغك في قول الله تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:2]، إنَّما لاموا أنفسهم حين صاروا إلى جهنَّمَ، فاعتنقتهم الزَّبانيةُ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، وانقطعت عنهم الأماني، ورفعت عنهم الرحمة، وأقبل كلُّ امرئٍ منهم يلومُ نفسَه.

أيها الإخوة: هذا شيء ممَّا قرأتُ في شرح حديث يا عبادي إني حرمت الظلم، من كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي.

أخرج ابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

((**يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.**

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله رب العالمين